من تجربتي في الكتابة التاريخيـــة

"التعامل بشغف مع التاريخ"

بقلم : الاستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي

الحلقة الأولى

****

كلمة لابدّ منها

"ما أتى الله أحدًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدا" \ حديث شريف

لابد من الإشارة أن الكتاب الذي بين أيدينا فيه ورقات من "السيرة الذاتية"، وورقات من "السيرة العلمية"، لا لشغفي بسيرتي الذاتية أو إعجابي بسيرتي العلمية ، فالسيرتان اعتياديتان ربما يمر بهما أي فرد وليس فيهما مظاهر للفخر والتباهي. بل لأنني وجدت أن ملامح من كلا السيرتين مهم لتفسير "تجربتي في الكتابة التاريخية". وبمعنى أكثر وضوحًا أن كلا السيرتين وسيلة لتوضيح تجربتي في الكتابة التاريخية التي هي لب الكتاب والغاية منه.

ومما لا شك فيه أن هذا النمط من الكتابة يعتمد على التجربة والمعايشة والمشاهدة. ولم يرتبط مفهوم "السيرة" بالدلالة على تدوين مظاهر النشاط لدى شخص آخر وفق منهج سردي تاريخي إلا قبل نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي وما بعده، حين بدأ الإخباريون والمؤرخون الأوائل يسجلون سيرة النبي صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين، ثم بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين ومن جاء بعدهم من حكام المسلمين وسلاطينهم.

وهذا النوع من السيرة ، سيرة "فردية أو غيرية" والتي عرفها عز الدين إسماعيل بأنها الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته، (راجع: الأدب وفنونه).

ولكن هناك نوعا ثانيا من السيرة وهو "السيرة الذاتية" التي تعد تجربة ذاتية لفرد تراكمت حتى نضجت وما لبثت أن شكلت نوعًا من القلق في نفس صاحبها لا يجد مناصًا إلا أن يدوّنها. (راجع: إحسان عباس، فن السيرة)، وربما سماها البعض "بالمذكرات".

ولست هنا في معرض الإطالة حول السيرة وأنواعها، إلا أنني أقول بأن لدينا في ثقافتنا العربية- الإسلامية العديد من النماذج عن السير الذاتية والسير الفردية دونها جملة من مفكرينا ومؤرخينا وأدبائنا عبر القرون الإسلامية المتتابعة (راجع: فاروق عمر فوزي، التدوين التاريخي عند المسلمين). فمن أمثلة السيرة الفردية (الغيرية) ما كتبه ابن إسحاق عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كتبه ابن عبد الحكم وابن الجوزي والأجري عن سيرة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه). وما دوّنه المؤلف المجهول عن سيرة الخليفة العباسي المأمون، وثابت بن سنان عن الخليفة العباسي المعتضد، وعلي بن الحسين عن سيف الدولة الحمداني، والعتبي عن سيرة محمود الغزنوي (التاريخ اليميني) وما كتبه المقرّي التلمساني 1041هـ عن الوزير لسان الدين بن الخطيب وكذلك عن القاضي عياض. وما كتبه النسوي عن سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، وعز الدين بن شداد عن سيرة الملك الظاهر بيبرس، وابن الجوزي عن المفاخر في أيام الملك الناصر والسخاوي في الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، وتأتي المناقب التي دونت عن الأئمة وفقهاء ضمن هذا السياق مثل مناقب جعفر الصادق ومالك بن أنس والشافعي وغيرهم.

وهنا نماذج عديدة من السير الذاتية (الشخصية) Autobiography مثل: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ 584هـ، والمنقذ من الضلال للغزالي 505هـ، وطوق الحمامة لابن حزم 406هـ، ورسائل لسان الدين بن الخطيب، 776هـ، والتبيان لعبد الله بن بلقين (صاحب غرناطة)، وسيرة ابن سينا، ولهفة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي، ونصيحة النفس لابن عربي، والبرق الشامي للعماد الكاتب الأصبهاني، ومذكرات المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الإسماعيلي وغيرها.

ثم أن ما يكتبه المؤلف عن نفسه ضمن كتابه الذي ألّفه يُعد سيرة ذاتية (شخصية) مثلما ما فعل ياقوت الحموي في معجم البلدان، ولسان الدين بن الخطيب في الإحاطة بأخبار غرناطة، وعبد الرحمن بن خلدون في العبر، وابن حجر العسقلاني في كتابه رفع الأصر عن قضاء مصر.

وقد يجمع المؤلف سيرته الذاتية بالسيرة الفردية (الغيرية) التي دونها لشخص آخر، مثلما فعل بهاء الدين بن شداد في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، والقاضي الفاضل في رسائله، والعماد الكاتب الأصبهاني في الفتح القسي في الفتح القدسي، وأبو بكر الصنهاجي في أخبار أمير الموحدين المهدي بن تومرت. وقد تدخل "السير العُمانية" في هذا الإطار لأنها تجمع بين السيرتين رغم اختصارها الواضح.

وقد استمرت السير بنوعيها في عصرنا الحاضر، ونلاحظ نماذج متميزة منها ما كتبه عباس العقّاد في كتابه الموسوم "أنا"، وما دونه طه حسين في "الأيام"، وأحمد أمين في "حياتي" وسلامة موسى في "تربية سلامة موسى". وجلال أمين في

"ماذا علمتني الحياة" بل إن العديد من المفكرين والمؤرخين والساسة والقادة العسكريين يدونون مذكراتهم ويودعونها خلاصة خبراتهم وتجاربهم. ولا شك فإن مثل هذه المذكرات تحتاج في تدوينها إلى كثير من الشجاعة بحيث لا تتستر على بعض المواقف والعلاقات، كما وأنها تحتاج ذاكرة قوية وموقفًا موضوعيًا من المؤلف. وتدخل ضمن السير والمذكرات رحلات الرحالة المسلمين المشارقة والمغاربة أمثال ابن جبر 614هـ وابن بطوطة 770هـ وناصري خسرو علوي 481هـ وعبد اللطيف البغدادي (ق7هـ)، في الإفادة والاعتبار.

ولابد من الإشارة كذلك أن المفروض في الكاتب والباحث المفكر أن يكون صريحًا جريئًا يقتحم على الناس بآرائه ولا يبالي من رضي ممن سخط منهم، الذين لا يروق لهم أن يروا كلامه مطبوعًا (راجع: إبراهيم المازني، حصاد الهشيم)، فهو والحالة هذه عالم حقيقي يضع أمام الناس نتائج علمه وثمار بحثه، فيفيد الأمة مع محافظته على كرامة العِلم (أمين الريحاني، مقالة الكتّاب). والعالم لا ينسى بعد هذا وقبله حديث الرسول ﷺ بأن الله أخذ على العالم ميثاقًا ألا يكتم علمه عن الناس.

وعود على بدء فلابد أن أتفق مع إحسان عباس بأن ما أقدمه في هذا الكتاب هو تجربة ذاتية تراكمت حتى نضجت أو كادت ، فشكلّت نوعًا من القلق في نفسي لم أجد مناصًا إلا أن أدونها. فما مصير كل هذا الذي سوّدت به الورق وشغلتُ المطابع؟ هل كما يقول إبراهيم المازني "سيفنى ويطوى بلا مراء"، مصداقًا لقوله تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزًا﴾ صدق الله العظيم. ومهما يكن من أمر فإن العلماء والمفكرين يقرأون الكتب ويؤلفونها وهي غذاء الروح التي أعزّها الله تعالى ورفعها فوق الجسد، وهل هناك أفضل من الكتب وبخاصة تلك التي تتعلق بالدين والتاريخ والتراث.

نبذة عن السيرة العلمية وملامح من السيرة الشخصية

ولد الدكتور فاروق في مدينة الموصل (أم الربيعين) في السادس من حزيران 1938م، ونشأ في أسرة يعمل أكثر أفرادها في السلك العسكري، فقد كان والده ضابطاً، وكذلك كان جدّه من أبيه وجدّه من أمه وأعمامه وخاله ضباطًا في الجيش العراقي الباسل.

نشأ الدكتور فاروق وترعرع في أسرة محافظة من الطبقة المتوسطة اجتماعياً.. ولا شك فإنّ العسكرية أثرت على تقاليد الأسرة وموقعها الاجتماعي في بيئة الموصل المحافظة، وبالتالي فقد أثرت عليه، فثقافته الأولى – خارج المدرسة – كانت تتعلق بكل ما له علاقة بالجيش وسيرة القادة العسكريين من العرب المسلمين ومذكرات العديد من القادة الأجانب الذين برزوا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية... متخذاً من كتب والده والتي تضم (المجلة العسكرية العراقية) والعديد من الكتب التي تصدرها وزارة الدفاع العراقية خير ملجأ لقضاء أوقات الفراغ... إنّ هذه الظروف جعلت الحياة العسكرية محببة لديه ولهذا كانت الكلية العسكرية العراقية أول كلية فكّر بطلب الالتحاق إليها بعد تخرجه من الثانوية لولا أن بعض أساتذته ألحوا عليه بالتقديم إلى البعثة الخارجية لكونه الأول في دفعته على الفرع الأدبي في الموصل.

ولعل مكتبة والده العسكرية وما فيها من كتب تاريخية وكذلك القصص والتجارب التي كان يرويها للأسرة عن حركات الجيش العراقي وتاريخه ودوره كانت ذات أثر في توجيه تطلعاته منذ وقت مبكر نحو التاريخ. وقد لاحظ ذلك أحد النقّاد حيث علّق على أسلوب الدكتور فاروق بقوله: "يكتب التاريخ بلغة عسكرية"!!. كما ويلاحظ القارئ لأبحاثه عن الجيش والنظم العسكرية أنها مكتوبة بحرص وشغف كبيرين مما يدل على استمرار تعلقه بالحياة العسكرية وتقاليدها ومثلها والتي كان يتوق الانخراط فيها. ولكن فاروق تعلّم من والده أكثر من ذلك فقد غرس فيه قِيَمًا من الحرص والجدية والإخلاص للمهنة وغيرها؛ حيث يمكن تلخيصها بالنزاهة. وبلغ احترافه للعسكرية درجة أنه كان لا يرى تدخل الجيش في السياسة على عكس جدي وعمي اللذيْن شاركا في السياسة.

وكان لوالدته شأنً كبيرً في صقل شخصيته خاصة وأنه كان الابن البكر فهي أم متعلمة لها شخصية نافذة وقد حملت على عاتقها أعباء الأسرة ومستلزماتها اليومية خاصة وأن رب الأسرة كان ضابطاً مشغولاً بالأمور العسكرية الكثيرة والمتتابعة. وكان د. فاروق الابن الأكبر لعائلة تضم فتاتين وأربعة أولاد. وكان من حسن حظه أن التقاءه عن كثب بجدّه مِن أمّه الذي كان من مخضرمي العهدين العثماني والوطني، ولذلك فهو يُعد سجلاً حافلاً لحقبة مهمة من تاريخ العراق الحديث، وله في هذا المجال آراء وتفسيرات عديدة خاصة، وأنه شارك بصورة مباشرة في أحداث سياسية مهمة واكتوى بنتائجها. يقول د. فاروق أنه اطلع ولأول مرة حين كان في مرحلتي الثانوية والكلية على كتب قومية وسياسية في مكتبة جدّه مثل: (تاريخ الأمة العربية) للأستاذ درويش المقدادي الذي طبع طبعة ثالثة في بغداد 1932م، وكتب الأستاذ ساطع الحصري وعبد الرحمن الكواكبي وجورج أنطونيوس (يقظة العرب)، وكتب أخرى من سلسلة مشاهير العرب، وسلسلة إقرأ وغيرها.

كانت ولادة د. فاروق في محلة باب لكش بالموصل، وحين بدأ يعي ما حوله أدرك أن لدى أسرة والده مجموعة من المساكن المتجاورة في تلك المحلة يقيم فيها الأقارب جنباً إلى جنب. ولكنّ والده ما لبث أن بدأ ينتقل من وحدة عسكرية إلى أخرى، وكان فاروق ينتقل معه من مدينة إلى أخرى بمعية أسرته. وكان أول عهد فاروق بالمدرسة والتعليم في بغداد حيث أدخل (المدرسة الأعظمية الثانية) للأطفال 1943م وهو في سن الخامسة من عمره. وبما أن والده لم يكن في بغداد بل في قيادة الفرقة الأولى في الديوانية، فقد اعتمد منذ الوهلة الأولى على نفسه في الذهاب والإياب؛ حيث كان يذهب مع أطفال المحلة إلى المدرسة يومياً ولديه من الذكريات عن هذه المرحلة الكثير يصدق عليها قول عمارة:

أعاينتَ في طول من الأرض والعرض — كبغداد دارًا؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغدد واخضر عوده — وعيش سواها غير صافٍ ولا غض

تطول بها الأعمار إن غذاءها مريٌ وبعض الأرض امرأ من بعض

ولم يدم الأمر طويلاً على هذا الحال حيث نُقل والده مرة أخرى إلى الموصل بعد ترقيته إلى رتبة مقدم، وهنا التحق فاروق في الصف الثالث الابتدائي في (مدرسة الوطن الابتدائية للبنين) سنة 1946م، ويذكر عن هذه المرحلة مدى شعوره بالاطمئنان والراحة النفسية، فقد أحب المدرسة وأحبَّ التلاميذ من أهل الموصل، ولا شك فإن شعور الأسرة بالطمأنينة في بيئة الموصل حيث الأقارب، كان له أثره في ذلك الاستقرار، وفوق هذا فإن هذه المدينة هي مسقط رأسه وهي بطبيعتها مدينة جميلة خلابة تتمتع بمناخ لطيف يحفز النشاط ويبعث الحركة، ولا عجب فالموصل تجمع بين السهل والجبل وبين الماء والخضرة فقد قال عنها ياقوت في مهجه:

"الموصل المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النضير كبراً وعظماً كثيرة الخلق واسعة الرقعة وهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق..." وقيل عنها: أن الغريب إذا أقام بالموصل سنة تبين في بدنه فضل وقوة، وما يعلم لذلك سبب إلا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها، قال الشاعر:

وبصرة الأزد منّا والعراق لنا والموصلان ومنا الحل والحرم

ويستطرد صاحب السيرة متحدثاً عن ذكرياته في مراحل تعليمه الابتدائي والثانوي والجامعي فيقول:

لقد كانت مدرسة (الوطن الابتدائية) بالموصل المكان الذي شعرتُ فيه لأول مرة بولعي في العلوم الاجتماعية بصفة خاصة، وحبي لموضوعاتها، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى معلم مادة التاريخ الذي درست عليه في الصفين الخامس والسادس الابتدائي وهو (الحاج عزيز) الذي أكنُّ له كل محبة وتقدير، فقد كان مثال المعلم المخلص والحريص في أداء واجبه، ولعله أول شخص اكتشف رغبتي إلى دراسة التاريخ وحاول أن يشجعها ويصقلها سواء كان بالثناء أو بالهدايا البسيطة بمناسبة حصولي مثلاً على أعلى درجة في الصف في مادة التاريخ!!

وقد دفعني ذلك أكثر إلى حب مادة التاريخ والولع بدروسها.

وفي (متوسطة المثنى للبنين) بالموصل قضيتُ سنوات الدراسة الإعدادية (1950-1953م)، وقد نالني من تشجيع المدرسين، ما نالني في المدرسة الابتدائية، وقد سعدتُ في هذه المرحلة بدراستي على مدرسين بارزين أذكر منهم: الأستاذ المرحوم شاذل طاقة مدرس مادة اللغة العربية الذي اهتم بي ورعاني ووجهني التوجيه الصحيح وكانت هديته لي كتابه المنهجي (تاريخ الأدب العربي)، وكذلك نشرة تضم مجموعة من قصائده وهي أول هدية أتلقاها في الكتب الثقافية... تبعتها هدية الأستاذ محمود على الداود مدرس مادة التاريخ، وكانت كتاب (فلسطين والتقرير الإنجليزي الأمريكي) للدكتور زكي صالح أستاذ التاريخ الحديث بجامعة بغداد.

وقد يسّر الله سبحانه وتعالى لتدريسي خلال هذه المرحلة، الدراسة المتوسطة (الإعدادية)، مجموعة من الأستاذة المتميزين ذكرت منهم اثنين: هما الأستاذ الداود والأستاذ شاذل طاقة وأشير إلى آخرين مثل الأستاذ ياسين عبد الكريم، والأستاذ وفيق الخشاب... لقد تخرج هؤلاء من الكلية ودرسّوا لسنوات قليلة في المدارس الثانوية ثم التحقوا بالبعثة العلمية لمواصلة تحصيلهم العلمي. ومن غريب الصدف أن ألتقي ببعضهم مرة أخرى وعلى مقاعد الدراسة في الكلية. فحينما عادوا بعد حصولهم على الدكتوراه كنت أنا قد التحقت بالجامعة فدرست على أيديهم ثانية في الكلية!!

أما الأستاذ شاذل طاقة فقد درستُ على يديه في المرحلة المتوسطة ثم درسني ثانية في المرحلة الثانوية موضوع اللغة العربية... وكان لرعايته وتشجيعه الأثر الكبير على استمراري في حقل الإنسانيات، وأذكر في الصف الرابع الثانوي أنني احتجتُ لكي أعفى من جميع الدروس درجتين فسألني أمام الصف، كم ينقصك؟ فأجبته. فقال: أنا أضيفها إلى درجة اللغة العربية لأنك تستحق الإعفاء من الامتحان!!

إن هذه الظروف المحفزة التي هيأتها بيئة الموصل المناخية والثقافية بالإضافة إلى وجود مدرسين حريصين على رعاية التلميذ والأخذ بيده من أجل تطوير موهبته هي التي ساعدتني كثيراً على تحسين أدائي، وأذكر أنني وزملائي بدأنا نكتب التقارير المدرسية منذ المرحلة المتوسطة، ونقرأ الكتب التي كنا نستعيرها من (المكتبة العامة) في الموصل. ولا أزال أذكر الموقع الجديد الذي بنى خصيصاً لها في أحسن ساحة من المدينة قرب حديقة الشهداء ودار الضباط حيث تنشرح النفس ويتوق العقل للمطالعة والكتابة. وأذكر أن أول تقرير كتبته ونال تقدير أستاذي هو عن (مركز المرأة في المجتمع). ولا أزال أذكر أهم المصادر التي قرأتها في المكتبة حول هذا الموضوع، ومن أبرزها كتاب محمد جميل بيهم (المرأة في حضارة العرب) وكتاب (أعلام النساء) لعمر رضا كحالة.

تخرجتُ في (ثانوية) الموصل للبنين سنة 1954م/1955م، وكنتُ الأول على الفرع الأدبي في الموصل، ومع أن رغبتي كما أشرت كانت الالتحاق بالكلية العسكرية جرياً على تقاليد العائلة.. إلا أن حصولي على معدل عالي في الامتحان الوزاري (الثانوية العامة) أهلني للالتحاق بالبعثة العلمية خارج الوطن، وهذا ما ألح عليه عدد من أساتذتي على رأسهم الأستاذ شاذل طاقة. وهذا الأمر أدى الى نشوب صراع في نفسي بين تحقيق مطالب أهلي الذين يرغبون ببقائي بينهم حيث لم يحن الوقت بعد للغربة خارج الوطن، وبين مطالب أساتذتي الذين شجعوني على اتخاذ قرار جريء للالتحاق بالبعثة وانتهت الأمور بالتحاقي بجامعة بغداد، وأن يتم تأجيل البعثة إلى الخارج بعد تخرجي من الجامعة.

دخلتُ دار المعلمين العالية (كلية التربية فيما بعد) قسم العلوم الاجتماعية- فرع التاريخ، وكانت هذه الكلية تختار الطلبة ذوي المعدلات العالية ويتم تعينهم مدرسين بعد تخرجهم مباشرة، وقضيتُ فيها أربع سنوات من عمري، ونتيجة التحاقي بدار المعلمين العالية (كلية التربية) ببغداد تغربت عن أهلي وعن مدينتي وذكرياتي، ولكني اختلطت مع زملاء في محافظات عديدة نتج عنه اكتساب زملاء عديدين وقيام علاقات مع بعضهم، ورغم أن الأيام قد باعدت بيني وبينهم إلا أنني لا أزال أحتفظ بصور تذكارية لبعضهم أتطلع إليها بين الحين والآخر حين أحسُّ بوحشة أو ضيق فتخفف عني أعباء الحاضر ومسؤولياته وهموم المستقبل وتطلعاته.

ثم أن الدراسة في الجامعة وما فيها من نضج فكري يطرح في المحاضرات التي يلقيها أساتذة متخصصون وما يطلبونه من تقارير وقراءات في كتب عديدة بعضها باللغة الإنجليزية وضرورة الإطلاع على الأبحاث في الدوريات ودوائر المعارف... كل ذلك كان له أثره في تكوين فكري واتساع أفقي.

واذكر أنني وبعد قبولي في فرع التاريخ وبالنظر للزيادة الحاصلة في عدد طلبة التاريخ حيث كان موضوع التاريخ من الموضوعات المرغوبة تقرر نقلي إلى قسم اللغة الإنجليزية لأن معدلي في الإنكليزية كان عالياً، فانتقلت إلى القسم الجديد على مضض ولكن وجداني وفكري ظل متصلاً بالتاريخ، فراجعت العمادة وأصريتُ على عودتي لقسم التاريخ لأنني أول المقبولين فيه، وتجاه إصراري على طلبي المشروع وتدخل الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي، تقرر عودتي إلى قواعدي في قسم التاريخ !!

والواقع أن مما زاد في إصراري على العودة إلى قسم التاريخ أنني حضرتُ خلال هذه الفترة درساً في النحو في قسم اللغة العربية، وكان الطلبة يحاولون إعراب جملة فقال أحدهم: مبتدأ وقال الآخر: خبر، فكان جواب الأستاذ: يجوز الوجهان!! وهكذا تيقنت أن كل الحقائق نسبية ومن الأفضل لي أن أعود إلى موضوعي الذي أُحب ألا وهو التاريخ ولم يؤثر عليّ قول الرصافي:

وما كتبُ التاريخ في كل ما روت لقرّائها إلا حديـــث ملفّق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدّق

وفي قسم التاريخ تتلمذت على يد مجموعة من أساتذة التاريخ المتميزين أذكر منهم: الدكتور زكي صالح (أستاذ التاريخ الحديث) والأستاذ الدكتور محمد الهاشمي (أستاذ التاريخ الإسلامي)، والدكتور فاضل حسين (أستاذ تاريخ الشرق الأدنى الحديث)، والأستاذ الدكتور محمد محمد صالح (أستاذ تاريخ أوروبا الحديث)، والدكتور عبد القادر أحمد اليوسف (أستاذ العصور الوسطى الأوروبية)، أما الدكتور محمود علي الداود والدكتور ياسين عبد الكريم اللذين؟؟ فكانا من أساتذتي في المرحلة الثانوية والجامعية.

لقد كان بعض هؤلاء الأساتذة مثل عبد القادر اليوسف وزكي صالح في الأوائل الذين وجّهونا نحو قراءة الكتب والموسوعات باللغات الأجنبية (الإنكليزية) فقد كان ملزماً علينا الإطلاع على بعض المصادر باللغة الإنكليزية عند كتابة التقارير والتحضير لبعض الموضوعات، ورغم صعوبة ذلك في حينه إلا أنني أدركتُ أهميته حين سافرتُ لمتابعة الدراسة والتحصيل في الخارج، فقد كانت معرفتي باللغة وبمصادر التاريخ الأجنبية لا بأس بها وذلك بفضل توجيههم.

لقد كنتُ الأول على دفعتي في قسم التاريخ، كما كنت أحد الطلاب المسجلين على لوحة الشرف في الكلية في (قسم الشرف) حيث كان يتم اختيار الطلبة الذين يتجاوز معدلهم 85% لقسم الشرف في السنتين الثالثة والرابعة وكنّا أربعة طلاب من قسم التاريخ. وقدر لثلاثة منا أن يستمروا في دراستهم وأن يحصلوا على درجة الدكتوراه والأخران هما الدكتور عرفان عبد الحميد، والدكتور كمال مظهر.

وهناك عدد من الأسماء البارزة في حقول العلم والمعرفة، كانوا ضمن الدفعة التي تخرجتُ فيها 1958م-1959م أذكر منهم:

- حميد مخلف الهيتي الذي كان بمرتبة الشرف في قسم اللغة العربية، وغدا عميداً لآداب المستنصرية.
- محسن عبد الحميد أحمد من الأستاذة البارزين في قسم اللغة العربية بكلية التربية- جامعة بغداد.
- وفي حقل الدراسات التاريخية كانت دفعتنا متميزة؛ حيث واصل عدد من الزملاء تحصيلهم العلمي وحصلوا على درجة على الدكتوراه أذكر منهم: فاروق صالح العمر، ومحمد حسين الزبيدي وزميلي في الدراسة منذ الطفولة وفي الجامعة وحتى الآن الدكتور أحمد الحسو.

واذكر أن الكلية أهدت للأوائل في كل قسم مبلغاً نقدياً قدره 12 ديناراً عراقياً، وكم تأسفتُ في حينه أن تكون الهدية نقدية لأنها ستصرف لا محالة ولا يبقى منها شيء، بينما لو كانت عينية تذكارية لبقيتْ تذكرني بمناسبة عزيزة على نفسي.

بعد تخرجي من (كلية التربية) قسم التاريخ تعينت في دار المعلمين الابتدائية في (بعقوبة) محافظة ديالى حيث كان – باعتبار الأول على دفعتي – بإمكاني أن أختار المكان الذي أرغب باستثناء بغداد. ولهذا فضّلت بعقوبة القريبة من بغداد حيث انتقل أهلي إلى بغداد من الموصل لأنّ أخواتي أنهين في وقتها المرحلة الثانوية ويسعيْن إلى إكمال تعليمهم في الجامعة ببغداد إذ لم يكن آنذاك جامعة في الموصل.

لقد كانت الظروف في أواخر الخمسينات وبداية الستينات سنوات صعبة سياسياً ولهذا كنتُ أترقب البعثات المخصصة لدراسة التاريخ، وقد سنحت لي بعثة سنة 1961م وتقدمت لها وكنتُ واثقاً من الحصول عليها، ولكن اللجنة اختارت مرشحاً آخر مبررة ذلك بأنّ له خدمة أكثر حيث لم يكن لدي إلا سنة واحدة أو أكثر قليلاً خدمة في التعليم!!

وقد اعترضتُ على ذلك بمذكرة قدمتها إلى (مديرية الشؤون الفنية العامة) حيث كانت البعثات تابعة لها، وإن كنت أذكر شيئاً فإنني أذكر بالعرفان والشكر الجميل أسبغه والدي (رحمه الله) عليَّ حيث أخذ يسعى بالمذكرة ويتابع تطوراتها ويقدم لي "تقريراً أسبوعياً" عن ذلك حين أعود من (بعقوبة) في نهاية الأسبوع... ولم يصاب والدي بالملل حتى منَّ الله تعالى على صبري وعلى تعبه بأن وضعت (احتياط أول). وحدث أنَّ طالب البعثة السابق عاد إلى الوطن بعد أقل من ستة أشهر على سفره بسبب مرضه، وهكذا رشّحت للبعثة باعتباري احتياطًا أولاً لها. لقد حصلت على البعثة بفضل جهود والدي ومتابعته، وكان والدي قد أبدى استعداده لبيع دار له في الموصل لكي يرسلني على حسابه الخاص بعد أن لاحظ تأثري في المرة الأولى لعدم حصولي على البعثة. جزاه الله عنّي خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته فقد كان حريصاً جداً لتحقيق تطلعاتي وطموحاتي.

بعد أن قضيت حوالي سنتين في العمل مدرساً بالمدارس الثانوية سافرت إلى إنكلترا في أواخر أيلول من سنة 1961م؛ حيث قبلت في (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) بجامعة لندن لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، ورغم أنني كنتُ أفضل بعثة مخصصة لدراسة التاريخ الحديث الذي كنتُ مولع به أكثر من الفروع الأخرى.. ولكن مديرية البعثات لم تعلن في تلك

السنة ولا في السنة التي سبقتها عن بعثات مخصصة لدراسة التاريخ الحديث.. وكان هناك زمالات دراسية إلى دول أوروبا الشرقية لم أغرب في حينه بالتقدم إليها لكثرة الشائعات حول ضعف مستوى الدراسة في تلك الدول.

وكانت السنة الأولى أثناء دراستي بجامعة لندن شاقة من جميع النواحي، ففي المجال العلمي كان عليّ أن أبدأ من جديد من حيث الطريقة والمنهج والمادة رغم حصولي على المركز الأول على دفعتي بجامعة بغداد، وكنت فخوراً بذلك. ومن الناحية الاجتماعية فرض عليَّ إقامة نوع من الانسجام مع متطلبات الحياة الجديدة وتقاليد المجتمع. وكان عليّ أن أتعلّم اللغة الإنجليزية وأتقنها بدرجة توائم متطلبات الدراسة العليا بالتاريخ. على أن خالتي نجاة التي سبقتني إلى بريطانيا لدراسة فيزياء النفط في جامعة كارديف لعبت دورًا في التخفيف من أثر الغربة لديَّ. رحمها الله.

ومع ذلك فإن رسوخ الإيمان والطموح أدى إلى تحطيم العقبات، فقد يسر الله تعالى الأمور وتمكنت من اجتياز امتحان الكفاءة (باللغة الإنجليزية) وامتحان (الكفاءة العلمية) qualifying exam حيث طولبت بأداء امتحان في عدد من المقررات التاريخية، مما اضطرني إلى الجلوس ثانية مع طلبة البكالوريوس الإنكليز في الجامعة وتلقي المحاضرات في تاريخ الخلافة والنظم الإسلامية والتاريخ البيزنطي وتاريخ أوروبا الوسيط وغيرها عدا حلقات البحث الأسبوعية (Seminars) و Tutorials .

وبعد اجتيازي الامتحان سُجّلتُ كطالب ماجستير وبدأت أجمع المادة التاريخية في الموضوع الذي اخترته "الدعوة العباسية"، وبعد أن كتبتُ فصلين من الرسالة بمستوى جيد قرر مجلس القسم بعد إطلاعه على تقرير الأستاذ المشرف نقلي من مرحلة الماجستير إلى مرحلة الدكتوراه لأن الأطروحة التي كتبت فصولاً منها توفرت فيها من عناصر المستوى العلمي ما يرشحني لنيل درجة الدكتوراه.

لقد كانت الفائدة التي جنيتها من أساتذتي بجامعة لندن كبيرة، ولا يمكن أن تعوّض أو تقدر بثمن ولا شك، فقد ظهرت نتائجها في ما كتبته من كتب وبحوث، فربما أختلف معهم في التفسير، ولكني أخذت منهم المنهج العلمي والطريقة والأسلوب الذي يهدف إلى إبراز الأدلة والبراهين بطرقة عقلية منطقية، وكيفية التعامل مع مصادر التاريخ ومناقشة رواياته وقبولها أو دحضها ...

كما وأن تدريبنا كطلبة على أصول وقواعد "البحث التاريخي" كان من الأهمية بمكان في الجامعة، ففي كل موضوع رئيسي كان هناك (حلقة بحث) Tutorials يحضّر فيها الطالب تقريراً صغيراً عن موضوع معين وبصورة دورية، وفي كل أسبوع هناك (سمنار) Seminar لطلبة الدراسات العليا بالقسم ويشمل إما محاضرة يلقيها أستاذ أو تقريراً يقدمه طالب عن المرحلة التي وصل إليها في بحثه والمصادر التي طالعها.

وإن كنت أنسى.. فلا يمكن أن أنسى (مستر باري) الأستاذ المتخصص بالتاريخ العثماني فقد كان يحاضر في دقائق التاريخ العثماني وتفاصيله، وبكل اقتدار دون أن يحمل ورقة واحدة معه ويكتب على السبورة كل أسماء الأعلام والأحداث ويسير في القاعة ذهاباً وإياباً دون أن يجلس أثناء المحاضرة.

وكان المستر باري يصحح تقارير الطلبة بدقة وتصحيحه كان لا يشمل المعلومات التاريخية فحسب بل اللغة والأسلوب... وكثيراً ما كنتُ ألاحظ الطالبات الإنجليزيات يبكين خوفاً من شدته وتصلبه في الامتحان أو التقرير.. لقد كان المستر باري أستاذاً تعلمتُ منه الكثير فيما يتصل بتقاليد الأستاذ الجامعي المتميز.

لقد كنتُ مدركاً والحمد لله أن هذه الفترة هي فرصة ذهبية لا تعوض يجب أن أستغلها خير استغلال من أجل بناء أساس علمي متين استند إليه في مستقبل حياتي المهنية التي كنت أتطلع إلى أن أكون متميزاً بها، ولذلك لم أدخر جهداً من أجل الاستفادة قراءة واقتناءً للكتب والبحوث. وأستطيع أن أقول بأن مكتبتي تضم غالبية الكتب التي صدرت في إنكلترا بين 1961-1867م في مجال اختصاصي في التاريخ الإسلامي وخاصة التاريخ العباسي ومنها دائرة المعارف الإسلامية التي كانت في مرحلة التحديث ودائرة المعارف البريطانية، ولكن الاغتراب والهجرة خارج الوطن (العراق) باعد بيني وبين مكتبتي.

وكان عليّ كذلك أن أتعلم لغة أجنبية أخرى عدا الإنكليزية حيث اقترح الأستاذ المشرف أن أتعلم اللغة الفرنسية لكثرة البحوث عن الفترة العباسية فيها. سافرتُ إلى باريس ودخلتُ إحدى المدارس هناك في صيف عام 1963م واستمرت دراستي هناك أكثر من أربعة أشهر حصلت بعدها على شهادة أولية في اللغة الفرنسية Reading Ability تمكنني من القراءة بمساعدة القاموس، كما كانت زيارتي لباريس فرصة للتعرف على معالمها، وأستطيع أن أقول بأنني أعرف باريس أكثر من لندن لأنني تجولت في شوارعها وتعرفتُ عليها عن كثب. وفي باريس ابتعت العديد من الكتب الفرنسية عن التاريخ والحضارة الإسلامية، كما أن زيارتي لباريس فرصة ثمينة لارتياد (المكتبة الوطنية) B.N وقراءة بعض المخطوطات العربية الموجودة فيها في مجال اختصاصي وهي غير موجودة في لندن. وقد التقيت هناك بالمستشرق (فيدا) الذي صنّف المخطوطات العربية في المكتبة وله بحوث في التاريخ الإسلامي، وتعرفت كذلك على بعض المشترقين الفرنسيين مثال (شارل بلات) و(سودويل)، حيث اشتهر الأول بكتاباته عن الجاحظ واشتهرت الثانية بكتاباتها عن الوزارة العباسية. أما (رودنسون) فمعروف بكتاباته الاقتصادية عن الإسلام؛ وقد شاهدت وأنا أتجول في مكتبات باريس القديمة والمكتبات الخشبية على طول نهر السين كتباً عن الحضارة والأدب العربي لمستشرقين فرنسيين رواد أمثال بلاشيير وما سنيون ولوبون وغيرهم مما أثار في نفسي أحاسيس غريبة وأنا أتصفح هذه الكتب التي أبلى الدهر بعض أوراقها التي مالت إلى الاصفرار!! وهذه الاكشاك الخشبية شبيهة بما هو موجود في شارع رسل ستريت قرب المتحف البريطاني في لندن.

ومن الصدف الطيبة في باريس لقائي بأحد زملائي التونسيين من دفعتي 1959م في قسم التاريخ بجامعة بغداد. وكان لقاءاً حاراً حيث جلسنا سوية نتناول الغداء في مطعم مدرسة الأليانس فرانسيز، وتذكرنا الماضي الذي لم يكن بعيداً جداً.

وكان مما قاله لي أنه بعد عودته إلى تونس وانخراطه في سلك التعليم الثانوي، أنه كان يتذكر أحداث الخمسينيات ويتابع أحداث الستينيات في العراق، والغريب أنه كان يفكر في موقفي المحايد البعيد عن الانخراط في التيارات المتطاحنة آنذاك، مبديًا إعجابه بهذا الموقف الذي وصفه "بالمتعقل" والذي لم يكن يفهمه في حينه"!!

والواقع أن ما أثاره الزميل التونسي كان يثير في نفسي تساؤلات عديدة بعد ابتعادي عن العراق للدراسة في إنجلترا، فكيف قاومت الدخول في العمل الحزبي الذي اشتد بعد حركة 14 تموز 1958م؟؟ وكيف لم تؤثر عليَّ كل الأوضاع السياسية المضطربة؟ ونجحتُ في الارتفاع عن مستوى الأحداث والنظر إليها من بعيد، رغم فكري القومي المشوب بالإسلام. وما هو

الوازع الذي كان يردعني عن مثل هذه الأمور وغيرها بعد أن تغيرت الظروف واضطربت المفاهيم والمثل، خاصة وأنني كنت بعيداً عن والدي الذي هو المثل الأعلى والوازع الأول لكل شاب في مثل عمري بالجامعة. أليس من حقي أن أقول بأنها الرعاية الإلهية التي يشير إليها زكريا في القرآن الكريم "ولم أكن بدعائك ربي شقيًّا".

لقد تعلمت من أساتذتي أن الإخلاص في العمل والصبر اللذين يعتبران من الشروط الرئيسية للنجاح... ولذلك وجّهت جهودي كلها في سبيل ذلك. وقد كان بإمكاني أن أقتصد في شراء الكتب لأشتري سيارة مثلاً ولكني فضلت شراء الكتب واستنساخ الأبحاث أولاً وقبل كل شيء لأنها كما أشرت الفرصة الفريدة التي أتيحت لي للدراسة في الخارج.

ويبدو أن الأستاذ المشرف وجد أنّ لديّ موهبة في دراسة التاريخ ويظهر ذلك واضحاً في تقاريره السنوية التي كان يرفعها إلى الملحقية الثقافية (السفارة العراقية) في لندن. وقد حدث أن اعتمد مشروع إعادة كتابة (دائرة المعارف الإسلامية) بطبعة مزيدة ومنقحة باللغة الإنجليزية. وقد طلب مني أن أكتب مقالة عن (إبراهيم بن محمد العباسي) مفجّر الثورة العباسية ومقالة أخرى عن (ابن النطاح) المؤرخ العباسي.

كما كتبت مقالة في (دائرة المعارف البريطانية) باللغة الإنجليزية عن البرامكة أتبعتها بمقالة أخرى في (دائرة المعارف الإسلامية) عن هارون الرشيد.

لقد وجدتُ أن اشتراكي وأنا لا أزال طالباً في كتابة مقالات في دائرة المعارف الإسلامية فرصة أخرى فريدة لابدّ أن أنتهزها واثبت فيها قدرتي وكفاءتي، فقد شعرت بسعادة عندما وصلتني رسالة من لجنة التحرير والنشر باعتماد المقالات، ولابد أن أشيد بفضل أستاذي المشرف في هذا المجال.

لقد أنفقت وقتاً وجهداً كبيرين أثناء إعدادها وكتابتها. على حساب وقت أطروحة الدكتوراه ولكن ما دام الجهد لا يذهب سداً فليس هناك ضير.

تخرجتُ من جامعة لندن في يوم عيد ميلادي (التاسع والعشرين) 1967/6/6م حيث ناقشت أطروحتي الموسومة (الخلافة العباسية 132هـ-170هـ) لجنة تضم البروفسور برنارد ولويس والبروفسور مونتكمري وات والبروفسورة جان هيسي، والتي وصفها تقرير الأستاذ المشرف بأنها "عمل ممتاز"، والواقع أنها قلبت مفاهيم "الاستشراق القديم" عن العصر العباسي الأول وخاصة فيما يتعلق بطبيعة الدعوة العباسية وأبعادها.

إنَّ أطروحتي للدكتوراه في جامعة لندن كشفت عن تقويم جديد للدعوة العباسية يختلف تماماً عن التقويم السابق، فالتقويم القديم الذي جاء به الاستشراق في القرن التاسع عشر يؤكد أن الثورة العباسية قامت على أكتاف الموالي الفرس وأن الموالي تبوؤوا مكان الصدارة في العصر العباسي الأول. بينما الواقع يثبت أن الثورة العباسية كانت عربية قام بها بالدرجة الأولى "عرب خراسان" أي القبائل العربية التي استوطنت خراسان، وأن الخلافة العباسية في عصرها الأول تبنت الثقافة والفكر والتقاليد والقيم العربية.

وليس معنى هذا أننا نستبدل تفسيراً عنصرياً بتفسير عنصري آخر، بل نقول أن العرب كانوا القوة الضاربة الرئيسية في الثورة العباسية وأن (مجلس النقباء) الاثنى عشر كان في غالبيته من العرب كما شارك الموالي في الثورة إلا أن وزنهم لا يمكن أن يقارن بوزن العرب، ولقد كان في المعسكر الأموي موالي من الفرس من أنصار الخلافة الأموية، ومعنى ذلك أن الفرس كانوا في الجانبين العباسي والأموي ولكن دورهم كان ثانوياً لا يقارن بدور العرب.

لقد برهنتُ على هذه "النظرية" بأدلة تاريخية من روايات عديدة استقيتها من مصادر بعضها كان في حينه مخطوطاً مثل (أخبار العباس وولده) للمؤلف المجهول ومثل (تاريخ الموصل) للأزدي وتاريخ خليفة بن خيّاط (وأنساب الأشراف) للبلاذري وغيرها، وبعضها من المصادر المحققة حيث تضم روايات لم يستغلّها أو لم ينتبه إلى معناها المؤرخون والمستشرقون في وقتها.

لقد وقع المستشرقون عن قصد أو دون قصد في أخطاء وملابسات عديدة وحين ترجمت كتبهم إلى العربية غدت أراؤهم حقائق تاريخية لا يرقى إليها الشك في الأربعينات والخمسينات وحتى منتصف الستينيات، ولكن استقراء الأحداث وظهور مخطوطات تاريخية جديدة وإعادة تقويم الروايات في المصادر المحققة بإعادة قراءتها، كل ذلك ساعد على تكوين نظرة جديدة في العديد من مظاهر تاريخنا، وما أشرتُ إليه عن الثورة العباسية يُعد نموذج ليس إلاّ.

بعد اعتماد أطروحتي في جامعة لندن، قررت اللجنة نشرها على حساب جامعة لندن ولكن عدم استطاعتي البقاء في لندن بعد الحصول على الشهادة حال دون ذلك.

ولعلي أذكر هنا موقف الملحق الثقافي في السفارة العراقية بلندن حين زرته مستبشراً لحصولي على شهادة الدكتوراه ومفتخراً بقرار جامعة لندن بنشر أطروحتي على حسابها الخاص، حيث طلبت الجامعة مني البقاء في لندن لشهرين للإشراف على الطبع وتصحيح البروفات. ففوجئت بموقفه السلبي حيث قال لي أنك طالب بعثة وقد انتهت منذ اليوم بعثتك وانقطع راتبك وعليك الاستعداد للعودة، بدلاً من أن يعتزّ بهذا القرار وبهذا الإنجاز ويكتب إلى بغداد بتمديد إجازتي شهرين فقط لأن مردودها كبير لا يحققه كل طالب وهو نشر الأطروحة على حساب جامعة لندن!! على أن الأطروحة نشرت فيما بعد في بغداد 1969م.

وقد كتب عن الأطروحة كل من البروفسور شارل بلات والبروفسور ووات في الدوريات التاريخية الأوروبية، وفي الوطن العربي كتبتُ بعض المقالات موضحة وجهة النظر الجديدة هذه.. كما تضمنت بعض الكتب المنهجية وجهة النظر تلك فيما ذلك.

ولا أزال أذكر أني بعد عودتي مباشرة من إنكلترا كتبتُ مقالة مطوّلة إلى إحدى المجلات العلمية وأُرسلت المقالة إلى خبير، فأرسل إليَّ الخبير وناقشني حول هذه "النظرية" ونصحني بالتروّي قبل نشر هذه المقالة، فسحبتُ المقالة منه قائلاً: إنَّ هذا التقويم الجديد للدعوة العباسية نوقش وقبل في جامعة لندن من قبل لجنة من المؤرخين المختصين!!

وهكذا لم يتيسر لهذه الفكرة أن ترى النور في السنة الأولى من ظهورها حتى أُعيرت خدماتي إلى جامعة الرياض 1968م فنشرت هناك مقالتين حول (الثورة العباسية) في مجلة كلية الآداب، ثم نشرت في بيروت 1970 كتابي الأول بعد الأطروحة الموسوم (طبيعة الدعوة العباسية) فكان مفاجئة للمؤرخين والمثقفين حيث وصلتني رسائل عديدة حوله؛ بعضها إعجاب وإطراء وبعضها تساؤل ونقاش وكلها تتضمن تقدير للجهد العلمي المبذول بحرص وإخلاص.

لقد كان إعداد أطروحة الدكتوراه خبرة كبيرة وتجربة عميقة في التدريب على البحث العلمي ومناهجه في جامعة لندن بإنكلترا، ولكنه كان وبنفس الوقت بداية الطريق لعمل طويل وشاق وممتع في أحيان كثيرة.

إن من أهداف الدراسات العليا في أية جامعة وأي اختصاص هو تدريب الباحثين ليكونوا علماء المستقبل في مجال اختصاصهم. ولذا نتوقع من عضو هيئة التدريس في الدراسات العليا والمشرف على الأطروحة إتاحة الفرص لطلبتهم على التدريب الكافي الذي يجعل منهم باحثين جادين.

والمتفق عليه في الدراسات العليا أن الطريقة التي يتدرب عليها طالب البحث هي الطريقة العلمية سواء في العلوم الصرفة والتطبيقية أو في العلوم الإنسانية، وقد وصفت الطريقة العلمية ببساطة: "إنها عبارة عن تعريف المشكلة وصياغة حلها الفرضي، وجمع الأدلة والشواهد التي تدعم الحل الفرضي الذي يوضع موضع الاختبار، أو الأدلة التي تدحضه وذلك عن طريق الملاحظة والتجريب أو الوثائق والأصول.

فإذا كانت الأدلة الداحضة للفرضية أقوى من تلك التي تدعمه فلابدّ من التفكير في فرض آخر تتم البرهنة على صحته أو خطئه على أساس الأدلة المجتمعة. فإذا ثبتت صحة الفرض عندئذ يصبح اكتشافاً علمياً له أهمية قد تكون كبيرة أو صغيرة". (1)

وقد يحلو للبعض القول بأنّ الباحث في العلوم التطبيقية يجد صعوبة أكبر من الباحث في العلوم الإنسانية، ولكن الواقع يؤكد العكس فإذا كانت الطريقة العلمية قد حققت نتائج مهمة في ميدان الفيزياء وعلوم الحياة مثلاً فإن نفس هذه الطريقة العلمية تبدو أكثر تعقيداً عند تطبيقها على دراسة السلوك الإنساني في ميدان التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة. فعالم المواد غير الحية أو الحياة العضوية دون الإنسان أبسط من عالم الإنسان، وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الباحث في العلوم الاجتماعية لابدّ وأن تتوافر لديه قدرة على الحدس والتحليل فوق قدرته على مجرد استخدام الطريقة العلمية.

إن الباحث في العلوم الإنسانية – ومنها التاريخ – يهتم بالقيم والمثل والعبر المستخلصة مثل اهتمامه بالحقائق التاريخية. فالطريقة العلمية قد تفيد الباحث في التوصل إلى الحقائق المجردة، ولكنها لا تستطيع أن تسعفه في إثبات صدق هذه الحقائق والمعاني والقيم التي ورائها إذ لابد له من استخدام طرق أخرى إلى جانب الطريقة العلمية.

ولعل من أهم خصائص البحث التاريخي في الدراسات العليا اكتشاف وثائق أو مخطوطات جديدة حول موضوع البحث، أو مادة جديدة لم تستغل مسبقاً من المصادر الأولية المنشورة. وهنا نجد تفاوتاً بين طالب وآخر تبعاً لجهود الطالب والفرص المتاحة له لجمع المادة من أماكن متعددة. وربما كانت الوثائق والمذكرات والرسائل والمخطوطات والوصايا من أهم مصادر البحث الأولية، ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى اهتمام الإنسان منذ القدم وتقديره الكبير للكلمة المكتوبة. ولا شك فإن شدة إحساس بعض الشخصيات الموهوبة أو التي تتمتع بقدرة معينة ميزتها عن غيرها، كان على الدوام دافعاً لجمع أوراقهم ومذكراتهم والاحتفاظ بها، فقد ذكر أحد النقّاد الذين زاروا منزل الكاتب آرنست همنجواي بعد وفاته سنة 1961م أنه كان يحتفظ إلى جوار مكتبه بخزانة حديدية صغيرة يضع فيها خطاباته ووثائقه ومخطوطاته. وقد حصلت جامعة ألينوى الأمريكية على قدر كبير من الوثائق المكتوبة التي تتصل بحياة هـ. جـ. ويلز والتي كان يحتفظ بها.

وفي الجامعات المرموقة تختلف النظرة إلى الأطروحات. فرسائل الدكتوراه لابدّ أن تكون "أصيلة" بمعنى أن تشمل إضافة جديدة للمعرفة وتختلف نسبة هذه الإضافة فبعضها يكون ضئيلاً وبعضها كبيراً وجذرياً بحيث يغير المفاهيم الخاصة بموضوع البحث. أما رسائل الماجستير فالعادة أن ينظر إليها على كونها دليلاً على قدرة الطالب على تناول مواد البحث ومناهجه وتطبيقاتها في دراسة موضوع علمي معين ومحدود، ولا يشترط فيها الأصالة. من هنا فإنني لا أرى سبباً وجيهاً لنشر رسائل الماجستير ما دامت موجودة في متناول اليد في مكتبة الكلية والجامعة. واقترح نشر جزء ذي مغزى من الرسالة أما في مجلة الكلية أو منفصلاً، وبذلك يطلّع الباحثون على الموضوع ويستفيدون منه، أما رسائل الدكتوراه فلابدّ من نشرها خاصة تلك التي تتضمن إضافة أصيلة.

---

(1) F. Millet, Professor, New York, 1961, p77 (الترجمة)، القاهرة، 1995م.